الوسطية في القرآن الكريم

مقرر سنة ثالثة كتاب وسنة، مقياس التفسير الموضوعي، المحاضرة (05). الأستاذ مصباح موساوي

الوسطية بين دلالات النصوص وأقوال العلماء

تعريف الوسطية:

قال ابن فارس: الواو والسين والطاء بناء صحيح على العدل والنصف، وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه، قال تعالى: (أمة وسطا).

فالوسطية عدل واعتدال، وكل انحراف عن هذا المعنى وانحيازإلى أحد الطرفين إفراط أو تفريطا إسراف أو تقتيرا مغالاة أو تقصيرا فهو تطرف.

ومن هنا كان اختيار الوسطية هو الأفضل، وكان أصحابه الخيار، وكان الإسلام دين الوسطية والخيرية، وكان كل انحراف عنه أو عن مقتضياته واختياراته السوية، تطرفا.

وردت مادة (وسط) في خمسة مواضع من القرآن الكريم:

1 ـ في قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)، البقرة: 143.

2 ـ وقوله تعالى: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين)، البقرة: 238.

3 ـ ووردت في سورة المائدة: بصيغة الأوسط، في قوله تعالى: (فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم)، المائدة: 89.

4 ـ ونفس الصيغة وردت في سورة القلم، في قوله تعالى: (قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون)، القلم: 28.

5 ـ ووردت فس سورة العاديات، في وقله تعالى: (والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا، فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا)، العاديات: 5.

الاعتدال والوسطية يجب أن يكون في العقيدة والسلوك والتعامل، في الروابط الاجتماعية والأخلاقية، وفي جميع الاتجاهات الحياتية الأخرى، حينئذ يعيش الانسان مستقرا متقدما نحو مستقبل أفضل.

الوسطية في ضوء نصوص القرآن:

لقد كان لمصطلح الوسطية في نصوص الشريعة مجال رحب لمن أراد الوقوف على أصله ومضمونه، ولا شك أن وراء ذلك مقصداً وغاية، فالشارع الحكيم أراد من عباده أن يتصفوا بهذا الوصف ويكون لهم منهجاً ومسلكاً، ولذلك حري بنا في سياق موضوعنا هذا أن نقف على تلكم المواضع التي أشارت إلى الوسطية تصريحاً وتلميحاً في كتاب الله تعالى.

1- قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) [البقرة: 143]، وقد جاء تفسير هذه الآية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما روى ذلك البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -: قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب. فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ: (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: 143]. فذلك قول الله جل ذكره: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) [البقرة: 143]، والوسط العدل"[1]، وهو أحد المعاني المرادة ولكن لا يمنع من أن يكون هناك معانٍ أخرى.

قال الطبري في سياق تفسير هذه الآية: " وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين مثل (وسط الدار) محرّك الوسط مثقّله، غير جائز في سينه التخفيف. وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوّ فيه غلوّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها"[2]. وقد جرى على منواله القرطبي[3]، وابن كثير[4]، والسعدي[5]، وابن عاشور[6]، ومن المعاصرين من جعل الوسطية التي قصدها الشارع دائرة مع عنصرين لا بد من توافرهما: الخيرية - البينية، فالجمع بين هذين العنصرين يثمر لنا الوسطية التي مدحها الله تعالى[7].

2- قوله تعالى: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)، [البقرة: 238]، قال الخلوتي الحنفي: "والصلاة الوسطى أي المتوسطة بينها على أن تكون الوسطى صفة مشبهة، أو الفضلى منها على أن تكون أفعل تفضيل تأنيث الأوسط وأوسط الشيء خيره وأعدله وهي صلاة العصر؛ لأنها بين صلاتي ليل وصلاتي نهار، ولقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب: (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً) وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار"[8]، وقد نقل القول بكون الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ابن الجوزي في تفسيره ونسبه إلى جماهير أهل العلم، وذكر منهم علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبا أيوب، وابن عمر في رواية، وسمرة بن جندب، وأبا هريرة، وابن عباس في رواية عطية، وأبا سعيد الخدري، وعائشة في رواية، وحفصة، والحسن، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعطاء في رواية، وطاووس، والضحاك، والنخعي، وعبيد بن عمير، وزر بن حبيش، وقتادة، وأبا حنيفة، ومقاتل في آخرين[9].

3- قوله تعالى: (فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ)، [المائدة: 89]، والمراد بالأوسط هنا على الراجح المنزلة بين منزلتين، والنصف بين طرفين، وإن كان أصل اللفظ دائراً مع الأعلى والخيار والعدل، وقد أجمع العلماء على أن الوسط بمعنى الخيار هاهنا متروك[10]، على الرغم من كون سياق الآية قد جعل معنى الأوسط مغايراً لمعناها اللغوي، فإنه من جهة أخرى يؤكد ما تقدم من كون اللفظ في أصله اللغوي يدور مع العدل والخيار.

4- قوله تعالى: (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ) [القلم: 28]، والأوسط هنا بمعنى الأحسن والأرجح عقلاً ورأياً، أو الأوسط سناً، أو الأعدل والأفضل[11].

5- قوله تعالى: (فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) [العاديات: 5]، والمعنى توسط جموع الأعداء[12].

فهذه الآيات جاء فيها لفظ الوسط صريحاً، وهي كما ترى لا تخرج عن المعنى اللغوي لأصل الكلمة، وهو معنى توافق عليه الشرع كذلك كما هو مقتضى السياقات القرآنية المتعلقة باللفظ المعني، إلا أن هناك نصوصاً كثيرة جاء فيها معنى الوسطية في إطار ألفاظ أخرى؛ لتدل على هذا المعنى وفق منهجية قرآنية واضحة البرهان ثابتة البنيان، والباحث لا يسعه أن يقف عند هذه النصوص بأجمعها؛ لكونها كثيرة، إلا أنه سيقف مع بعضها موضحاً ومظهراً مقاصدها ومعانيها، وسيحيل إلى غيرها من خلال التنويه عمن فصل الحديث عنها فيما رقم ورسم.

6- قوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) [الفاتحة: 6، 7]، وجه دلالة الآية أنه سبحانه وصف الصراط المستقيم بأمرين: الأول أنه مستقيم، والثاني أنه غير صراط المغضوب عليهم وهم اليهود، وغير صراط النصارى، وهم أهل الغلو في الرهبانية والتعبد، حتى خرجوا عن حدود الشرع، ليس فقط في العبادة بل حتى في الاعتقاد، فإذا كان الصراط المستقيم غير صراط اليهود والنصارى، وكان صراطهم صراط غلو في الدين، دل ذلك على أن الصراط المستقيم الذي شرعه الله عز وجل صراط لا غلو فيه، فهو بين طرفين إفراط وتفريط، وهذا هو معنى الوسطية التي هي منهاج الدين الإسلامي[13].

7- والمعنى نفسه يظهر جلياً كذلك في قوله تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [البقرة: 213].

8- قوله تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) [لقمان: 19]، قال ابن كثير: "أي امش مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين"[14].

وهذه الآيات بعد بيانها يظهر بجلاء أنها تصب في إطار المنهج الوسطي الذي دل عليه القرآن الكريم، مع العلم أن الآية المركزية التي يدور معها مفهوم الوسطية هي قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) [البقرة: 143]، دون أن يغفل الباحث التنبيه على أن القرآن الكريم كله يدعو إلى الوسطية والعدل والإنصاف وما يتعلق بذلك من مفاهيم واصطلاحات، بدليل قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [الإسراء: 9]، فلفظ الأقوم هنا يشير إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي

أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكاً إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضاً أو تحذيراً، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه[15]؛ ولذلك جاء وصف الدين والشريعة والهدى بهذه اللفظ في اشتقاقات مختلفة ترجع إلى أصل واحد كما هو الحال بألفاظ: القيمة، أقوم، قيماً[16].

الوسطية في الاعتقاد:

قال تعالى: (قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)، المائدة: 77.

قال الطبري: لا تفرطوا في القوم فيما تدينون به من أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل، فتقولوا فيه: هو الله، أو هو ابنه، ولكن قولوا هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. (تفسير الطبري، 316/6).

قال ابن تيمية: والنصارى أكثر غلوا في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف، وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن. (اقتضاء الصراط المستقيم، 289/1).

فالمسلمون فاعتقادهم ما جاء به المرسلون من توحيد الله وإفراده بالعبادة، فآمنت بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا إليه غيره، ولا رب سواه، هو رب العالمين، وخالق الكون ومدبره: (له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)، الأعراف: 54، ونزهوه سبحانه عن الأنداد، واتخاذ الصاحبة والأولاد، تصديقا لقوله تعالى: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)، المؤمنون: 91، وقالوا كما قال مؤمنو الجن: (وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا)، الجن: 3، وقوله تعالى: (قل الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)، الإخلاص.

وصفهم المؤمنون سبحانه بصفات الكمال والجلال، ونزهوه عن جميع صفات النقص، كما نزهوه عن أن يماثله شيء من الخلوقات في شيء من الصفات...)، (منهاج السنة، ابن تيمية، 169/5).

ولم يصفوه إلا بما وصف به نفسه سبحانه، أو وصفته به رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، من غير تعطيل ولا تمثيل، فلم يشبهوه بشيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ـ كما فعل اليهود ـ بل قالوا: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، الشورى: 11، ولم يشبهوا شيئا من خلقه به، لا في ذاته ولا في شيء من صفاته، ولم يجعلوا له نظيرا أو ندا أو مثيلا أو شريكا في شيء من خصائص ألوهيته وربوبيته ـ كما صنع النصارى ـ بل نزهوه سبحانه عن الشبيه والنظير والكفء والند المثيل. (وسطية أهل السنة بين الفرق، ص:258).

الوسطية تعني التوازن المحمود:

والمعنى الثالث هو أن الوسطية تعني: التوازن المحمود، الذي يعصم الفرد حتى لا يكون فريسة بين الإفراط والتفريط، كل شيء له حد اعتدال، إذا زاد عن حده كان غلوا، وإذا نقص عن حده كان قصورا، ولذلك قال الله تعالى: (والسماء رفعها ووضع الميزان، إلا تطغوا في الميزان)، ميزان الاعتدال، والطغيان تجاوز الحد، (وأنه لما طغى الماء)، أي: تجاوز حده، (وأقيموا الوزن بالقسط) (أي: العدل) (ولا تخسروا الميزان)، نقيض الطغيان الإخسار، الطغيان: زيادة، والإخسار: نقصان، وحد الاعتدال بينهما هو الميزان.

والقرآن أشار إلى هذا المفهوم: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيل).

الوسطية في التدين والعبادة:

1 ـ الوسطية في التدين:

قال تعالى: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله غير الحق)، وقال ﷺ: (إياكم والغلو في الدين، إنما أهلك من قبلكم الغلو في الدين). والغلو مثل الغلا، فالغلاء في الأسعار في عالم الماديات، والغلو يقال في عالم المعنويات، تأكيد لما نهى عنه أهل الكتاب: (يأ أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق)،

وقال ﷺ: (هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون).

التنطع معناه التشدد في غير موضعه، فإما يكون دعاء عليهم، بمعنى أن يهلك الله أهل التنطع، أو تكون عاقبة أهل التنطع وبالا، وكلا التفسيرين يدلان على ذم التنطع، لذلك كان هذه الوصية الجامعة لمعاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن: (بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا). هذا هو حد التدين، لا تحلل من ثوابت الدين، ولا تحلل من قيم الدين، ولا غلو يجنح بالإنسان إلى تجاوز الحد المشروع، ويحمل الناس على المركب الصعب.

يقول الإمام الثوري: " إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشدد فيتقنه كل أحد".

لذلك الأمة تعايشت ما ضاقت، ليس عيبا أن يحمل الشاب في دينه العزيمة في نفسه، ولكن لا ينبغي أن يحمل الناس على المركب الذي ارتئاه، وكذلك الذي رأى الرخصة، له ذلك ولكن لا ينبغي أن يحمل الناس على المركب الذي ارتئاه لنفسه، ينبغي أن نتعايش بهذه الرحابة والسماحة، التي جاء به الدين، ولذلك وسعت أمتنا رخص ابن عباس، وعزائم ابن عمر، وأثرية ابن حنبل، وفقه أبي حنيفة، ومقاصدية الشاطبي، وظاهرية ابن حزم، ورقائق الجنيد، وفقه ابن تيمية، وفلسفة إبي حامد الغزالي،

كلهم من رسول الله ملتمس ** غرفا من البحر أو رشفا من الديم.

القصد القصد، تبلغوا إلى معنى التدين القائم على معنى التوازن الذي فيه السماحة وفيه التيسير، لأن بعض الناس جعلوا الدين في دائرة المحرمات، والمحرمات في شريعتنا ـ على أهميتها وخطورتها ـ أضيق دائرة من دائرة الحلال الواسع، فلا يحرم إلا بدليل صحيح، من الكتاب أو السنة، هذا ملحظ يجب أن نشير إليه في بيان الوسطية والاعتدال،

المسلمون اليوم محتاجون إلى الوسطية في التدين، لأنهم بين مغالي متهور، وبين متحلل متغور،

إما في إفراط وغلو وتشدد، الذي يتعبد فيه الإنسان عبادة ولا يرى غيرها عند الآخرين، بل يحاول أن يحمل الناس على ما ارتئاه من رأي أو مذهب أو فكر أو نحو ذلك، وهناك بالمقابل تحلل، دعوة إلى التحلل من ثوابت الدين.

هناك من يشكك في القرآن الكريم، ويتحدث عن تاريخية النص، وكأنه ليس وحيا، هناك من يشكك في ثبوت ونصوص السنة النبوية، وهناك من يتحدث عن ثوابت الشريعة ومحكمات الدين، ووجه ثالث هو التحلل القيمي الأخلاقي، عن الاستقامة بهداية الدين، كل هذا الخلل في التدين إفراطا أو تفريطا، غلوا أو تقصيرا، إسرافا أو تقسيرا، طغيانا أو إخسارا، فيتحول أنصاف المتدينين إلى معاول هدم للإسلام، ومراصد صد عن الدين، يكونون أداة سائغة لأعداء الإسلام، يقول الشيخ محمد الغزالي: "والخطورة تجيء من أنصاف متعلمين، أو أنصاف متدينين، يعلو نقيقهم في الليل المخيّم على العالم الإسلامي، ويعتمد أعداء الإسلام في أوربا، وأمريكا على ضحالة فكرهم في إخماد صحوة صحوة جديدة لدينا". (السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، الشيخ محمد الغزالي، ص: 2).

2 ـ وسطية في العبادة:

قال تعالى: (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم فما رعوها حق رعايتها)، الوسطية هي نقيض التطرف والغلو، وخير الأمور أوسطها، لقد نهى الاسلام عن الغلو والتطرف لأنهما يتقاطعان مع الوسطية القرآنية، قال تعالى: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) النساء: 171 وقد فسّر الطبري الغلوّ أي: لا تجاوزوا الحقّ في دينكم فتفرطوا فيه.(جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ج7، ص700).

وروي عن ابن عباس: (يا أيها الناس، إياكم والغلو ّ في الدين، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلوّ في الدين.) (صحيح ابن ماجة، محمد الالباني، حديث: 2455).

ولما كان الانسان مكونا من جسم ترابي يفنى، ومن سرّ إلهي خالد هو الروح، قال تعالى في كتابه العزيز: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) الاسراء:85 . ولكل من الروح والجسد مطالب وحاجات فجاءت تشريعات الاسلام وتوجيهاته على أساس الأمرين، ولتنظيمهما معا دون أن يطغى أحدهما على الآخر، للانسان جزءان إهمال أحدهما إهمال له بالذات. يقصد إهمال الروح إهمال للجسد وبالعكس.

لقد حرّم الاسلام الرهبانية، لأن في الرهبنة قضاء على بعض الصفات الانسانية والغرائز التي أجاز الله تعالى إشباعها بالطرق التي أباحها وشرّعها، فالرهبنة مخالفة للطبائع الانسانية.

وسطية في الإنفاق:

الكرم حد اعتدال، إذا زاد صار تبذيرا، وإذا نقص كان شحا وبخلا، الشجاعة اعتدلا إذا زادت عن مقامها صارت تهورا، وإذا نقصت كان جبنا وخورا وضعفا.

وكذلك حرّم الله الاسراف في الشهوات واشباعها بالطرق غير المشروعة، كما حرّم سبحانه الترف على حساب الغير، قال تعالى: (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)، الأعراف:31، وقال تعالى: (وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)، الأنعام: 141، وقال تعالى: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)، الفرقان: 67 .

وكل هذه المظاهر المحرّمة هي خلاف الوسطية، أحلّ الله زينة الحياة والتمتع بطيباتها وفق معيار الوسطية، أحلّ اللبس الطيب، والأكل الطيب وجميع الطيبات فلا تقاطع مع ميزان الوسطية القرآنية، من يستعرض آيات القرآن يجد أن الدنيا كلّها خلقت من أجل حياة راضية مرضية عند الجميع، وأن العزوف عن الحياة هو انزواء عن الدين الذي يدعو للوسطية، كما أن التكالب على الحياة بخيراتها التي هي للجميع وفق معيار العدالة، واحتكار الخيرات من قبل البعض وحرمان الآخرين منها، هو فساد في الأرض، وخطر على المجتمع، وخروج عن الوسطية القرآنية، وأفضل الأرزاق في الإسلام ما كان بكد اليمين، وعرق الجبين. وهنا تسقط جميع الوسائل غير الشرعية وغير الطبيعية، من حيازة المال والخيرات بالطرق غير الطبيعية من غش في التعامل، أو سرقة ...الخ.

العالم يكون خادما للمجتمع إذا فهم الإسلام فهما صحيحا، ويكون وباء على المجتمع إذا كان شاذا في الفهم، أي إذا خرج في فهمه عن الوسطية القرآنية التي تبني الانسان الوسط في جميع الاتجاهات، كي يكون متوازنا في حياته يعمل للدنيا من غير أن ينسى الله، ويعمل لله من دون أن ينسى الدنيا، والحديث المروي عن نبينا ﷺ يقول: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) هذه هي وسطية القرآن، لا تضحي بالآخرة من أجل الدنيا، ولا تسترخص بالدنيا بحجة الآخرة، بل التوازن والوسطية هي المطلوبة.

وسطية بين المصلحة والمفسدة:

قد يتحجج بعضهم بالمصلحة والمفسدة، حين يجبن عن قول الحق، أو تبليغ رسالة الإسلام، ويتعلل بهما، متسترا بهما عن العجز والجبن الذي يعتريه، فيصده ذلك التصور عن اتباع الحق، ومناصرة أهله، ويتحجج بالمصلحة والمفسدة على حساب دينه، غير مقدر للنعمة الإسلام، قال تعالى: (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون)، القصص 57، وقال تعالى:

قال سيد قطب رحمه الله: "كل من جبن عن قول الحق تحجج بالمصلحة والمفسدة، حتى أصبحت المفسدة والمصلحة طاغوتا يعبد من دون الله".

الوسطية في الصوت:

قال تعالى: (واغضض من صوتك)، لقمان: ، وسطية واعتدال، مع حركة وعمل وإنتاج وإحداث ثمرة، في صمتك وسكوتك وكلامك ونظرك.

"كل سكوت لا يكون فكرة فهو سهو، وكل كلام لا يكون حكمة فهو لغو، وكل نظر لا يكون عبرة فهو لهو".

في الحديث: "يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئا (لأن صوت أبي بكر خافت)، يا عمر: اخفض من صوتك شيئا " (لأن صوت عمر كان مرتفعا).

وسطية في مراقبة التصور والأفكار والأقوال والأفعال:

مراقبة في كل ما يختلج في النفس، وكل ما يقوم به العبد من حركات وسكنات، هذه المراقبة تصبوا به إلى الفلاح، وينجو من المساءلة والتوبيخ، فيسعد في الدينا والآخرة، ولذلك أشار القرآن إلى هذه المراقبة في قول الله تعالى: (إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور)، فاطر: 38، وأشار إلى هذه المراقبة وهو ينميها في النفوس فقال: (إن تكفروا فإن الله غني عنكم، ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور)، الزمر: 7، (وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور)، التغابن: 4.

قال تعالى: (ولا تقفوا ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا).

إن تصحيح التصورات الخاطئة والأفكار الهدامة التي تنتج أقوال فأفعالا فسلوكيات، هي مهمة القرآن الأساسية في بناء الإنسان الفرد الصالح المصلح، قال تعالى: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون)، فرد عليهم الله بقوله: (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)، لأن الفساد يقتضي شعور في هذه الحالة، بقدر الإيمان، وقال تعالى: (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن لناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء)، فرد الله عليهم بقول: (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)، لأن الإيمان يحتاج إلى علم أكبر، بقدر ما يحتاج إلى شعور.

وقد بين الله تعالى سريرة بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام حين أمرهم أن يذبحوا بقرة، فردوا عليه بقولهم: (أتتخذنا هزؤا)، تلك النية السيئة والظن السيء حتى بنبيهم وهو يأمرهم أن ينفذوا أمرا، هم طلبوا التحقيق فيه، فنفذوا الأمر وما كادوا أن ينفذوه، تلك السريرة السيئة جاء الإسلام ليقضي عليها، ويقومها في النفوس.

ثم نبه القرآن إلى مسألة مهمة وهو يربي النفس على أن الله يعلم ما تكنه الصدور، وما تعلنه الألسن، في مسألة كتم العلم ومحاولة تهميش وتزوير الحقائق، وغمط الحق وطمس الحقيقة، قال تعالى: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا أمنا وإذا خلا بعضهم إلى بقض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون)، البقرة 76، والقرآن وهو يكشف عن خفايا بعض النفوس حين تلتقي سرا وتتناجى خفية فيما بينها وقالوا في إنكار: أتحدثون المؤمنين بما بين الله لكم في التوراة من أمر محمد لتكون لهم الحجة عليكم عند ربكم يوم القيامة، أفلا تفقهون فتحذروا ذلك، ونسوا العليم بذات الصدور سبحانه.

وجاء القرآن ليصحح تلك الأفكار والمفاهيم المغلوطة التي تمناها اليهود من تلقاء أنفسهم، حتى أصبحت دينا ومعتقدا راسخا في تصوراتهم، فقال الله تعالى رادا على تلك التصورات الخاطئة والتقول على الله بغير علم، ومصححا لها: (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون) البقرة 80، وغيرها من المعتقدات الباطلة كقولهم : (وقالوا لن يدخل الجنة إل من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)، البقرة 111،

وهكذا ينمي القرآن في النفوس الرقابة في كل شيء، قال أحد الحكماء:

راقب أفكارك لأنه ستصبح كلمات..

وراقب كلامتك لأنها ستتحول إلى أفعال..

وراقب أفعالك لأنها ستتحول إلى عادات..

وراقب عادتك لأنها ستكوّن شخصيتك..

وراقب شخصيتك لأنها ستحدد مصيرك. (مقولة للحكيم الياباني لاوتسو).